القيم الجمالية في شعر المتنبي

الدكتور عبد الكريم يعقوب
أستاذ مساعد في
كلية الآداب والعلوم الانسانية
جامعة تشرين

حسن الدن
طالب الدراسات العليا في
كلية الآداب والعلوم الانسانية
جامعة تشرين

تتناول هذه المقالة ـ بايجاز ـ القيم الجمالية في شعر المتنبي بأبعادها الوجدانية والفنية ،وتبرز القيم الاجتماعية التي تجلت في موضوعات شعره ومعانيه ،وتبين الاساليب التصويرية الفنية في شعره .

تقل الدراسات الجمالية في أدبنا العربي القديم قلة تسترعي الانتباه ،واذا ماعثرنا على بعض الدراسات الحديثة فيه فإننا نجدها دراسات غير كافية ،لأنها لم تحقق الغاية المنشودة ،ولم تتخذ بعدُ طريقها الواضح المستقل .ومن هنا كان اختيارنا لبحث

" القيم الجمالية في شعر المتنبي "

وعلى الرغم مما كتب عن هذا الشاعر العظيم ،منذ عصره حتى الآن ،لانزال نجد متسعا للكتابة والحديث عن شعره ، اذ لم تتسم الدراسات السابقة بالشمولية والعمق المطلوبين اللذين نصبو اليهما في بحثنا حيث إننا سعينا جاهدين للكشف عن القيم الجمالية التي تعد سراً من أسرار خلود شاعرنا وشعره .

القيم الجمالية :

تعد القيم الجمالية مجموعة هامة من مجموعات القيم الانسانية المتعددة ، وعلى الرغم من تجرد هذه القيم نسبياً، فانها ترتبط بالقيم الانفعالية وتوجهها شطر تأمل الموضوع الجمالي .

واذا كان لابد من الحديث عن الإطار الذي درسنا فيه هذه القيم ،فاننا لم نجد مبررا لانقسام المفكرين في حديثهم عن الجمال الى فريقين : فريق يرى الجمال في الأشياء أو التعابير أو الصور ،وفريق آخر يرى الجمال في الشعور أو في المعنى أو في الموضوع ،ذلك لأن الجمال موجود في كل ماتحدث عنه الفريقان . ونحن لانحكم على شيء بالجمال الا اذا كان يلبي لذة أو رغبة أو حاجة إنسانية فينا أصيلة ، أو يعبر عن توق الانسان وتطلعه المستمر إلى المطلق في كل شيء ،(أي مايفيد الحياة هو المقياس الأول للجمال) (١)

١ ـ مسائل فلسفة الفن المعاصرة ٤٢

ولسنا مع أولئك الذين يفصلون المجال الجمالي عن المجال الأخلاقي . (فالرائع والخير مرتبطان فيما بينهما ارتباطا وثيقا) (٢).

واذا كنا في دراستنا هذه ،سنعير المضمون أو المحتوى اهتماما خاصا ،فاننا لن نهمل الشكل لارتباط كل منهما بالآخر.

ومن هنا لانريد أن نتصدى لتعريف القيمة الجمالية ،لأن الجمال في حقيقته قيمة متغيرة بتغير الزمان والمكان والمجتمعات الانسانية ،ولأن القيمة في جوهرها كمال ،والكمال لايعرّف لصعوبة ادراكه . ان التعريف يعني التحديد والتدقيق والتنهيج والضبط ،وهذا مايتلاءم مع منهجية العلم ،وليس الفن علماً بحتاً بل هو ابداع انساني متجدد دوما ،اذا عرفناه وحددناه ،وحاولنا أن نضع له الأسس والقواعد والأساليب قتلناه في المهد، ولذا فقد وسعنا مفهوم القيمة الجمالية ، وتجنبنا تعريفها حتى لايؤدي بنا التعريف الى مزالق التنظير الخطيرة . يكفينا أن نعد القيمة الجمالية أشمل القيم الانسانية وأكملها .

القيم الجمالية في شعر أبي الطيب

نتبين في دراستنا لشعر أبي الطيب نوعين من القيم :

أ ـ القيم الوجدانية والاجتماعية

وتشمل قيما نفسية ذاتية يفرزها الواقع الاجتماعي،ويتمثلها أفراد بأعيانهم، وقيماً أخرى عامة ،هي قيم المجتمع العربي في القرن الرابع الهجري،وقد اخترنا أن نكشف عن هذه القيم من خلال دراستنا للموضوعات التالية :

الفخر

ونبين فيه نوعين من القيم : قيما حربية ،تتمثل بحسن استخدام السلاح ، والإقدام والجرأة ،وقوة العزيمة ..... وقيما أخلاقية اجتماعية : كحب المكارم، والعفة ،والشرف ،والصدق ،والوفاء ،والعلم والحلم ،ويبدو فخر الشاعر في النهاية انتصارا على القلق ،وثقة بالنفس ،وعودة إلى القوة والاتزان .

الطموح :

يعد طموح أبي الطيب رد فعل قويا وانعكاساً مباشراً لمعاناة انسانية صادقة ،وهو طموح عبقري ،لايهدف كما صوره بعضهم ـ الى الغنى أو القيادة أو السلطة أو غير ذلك .... بل هو طموح له بواعثه وأسبابه ،ويمكننا تتبع خطه البياني من خلال حياة الشاعر وشعره ،فاذا مافعلنا ذلك وجدنا أن شاعرنا قد تفرد بشعر الطموح ،وانماز به عن غيره ،حيث وُجد تياران آخران : تيار اللهو والمجون وتيار الزهد. وسنجد أن شاعرنا قد ارتقى بطموحه هذا الى درجات سامية ،لايدركها القانعون . اسمعه يقول :

أريد من زمني ذا أن يبلغني
ماليس يبلغه من نفسه الزمن (٣)

اذا غامرت في شرف مروم
فلا تقنع بما دون النجوم (٤)

فستجد أنه يسمو بشعر الطموح سموا لم يعرف له مثيل في الشعر العربي ،ويرقى به الى درجة يصبح فيها مثلا ونموذجاً، لابل رمزا انسانيا رائعا ،يتجاوب مع النفس البشرية الطامحة الى الكمال في كل زمان ومكان .

٢ـ أسس علم الجمال الماركسي اللينيني ج١،٢٩

٣ـ الديوان ٢ / ٤/ ٣٦٤

٤ـ الديوان ٢ / ٤ / ٢٤٥

الثورة والبطولة :

ليس الحديث عن الثورة في شعر أبي الطيب نوعاً من العبث ، فما النبوة التي اتهم بها شاعرنا الا ثورة كان يعدّ لها عدتها ، وثورته هذه يمكننا أن نتبين ملامحها الأساسية في شعره ،فنجد فيها الملامح التالية :

أ ـ الملامح الاجتماعية

وتبدو من خلال تأكيد القيم الاجتماعية الأصيلة ،والثورة على القيم السلبية الفاسدة .

ب ـ الملامح الاقتصادية

وهنا يتجاوز أبو الطيب صيحات الاستنكار والاحتجاج الى التصميم على المجابهة ،فالبؤس والفقر لايدفعان الا بالثورة ، اسمعه يخاطب صديقا له :

أبا سعيد جنّب العتابا
فرب رائي خطأ صوابا
فإنهم قد أكثروا الحجّابا
واستوقفوا لردنا البوّابا
وان حدّ الصارم القرضابا
والذابلات السمر والعرابا
يرفع فيما بيننا الحجابا (٥)

جـ ـ الملامح الفكرية

ويكشف شاعرنا من خلالها عن افتقار أكثر حكام عصره إلى الثقافة الضرورية للحاكم ،كما يكشف عن تعرّيهم من الأدب والعهود والصفات الثقافية الاخلاقية .

د ـ الملامح القومية :

ونتبين أهمها فيما يلي :

١ـ دعوة سيف الدولة الى تعريب السلطات السياسية في البلاد العربية .
٢ ـ حثّ سيف الدولة على الثورة .
٣ ـ اخلاص شاعرنا للحمدانيين على الرغم من فراقه لهم .
٤ ـ تمجيد العروبة في كل مظاهرها .
٥ ـ موقفه من القبائل العربية الثائرة ضد سيف الدولة .
٦ ـ الارتباط بالأرض العربية .
٧ ـ التغزل بالأعرابيات .

ولعل حديث شاعرنا عن البطولة من أروع الأحاديث ،فبطله سيف الدولة يحتوي كل قيم البطولة العربية والنفسية والحربية، وهو مثله الأعلى الذي كان يطمح اليه .وفي السيفيات يرسم شاعرنا أسمى صور البطولة التي تمثلث بسيف الدولة . وأهم مايميز بطله : الفروسية الرائعة ،والبطولة القومية .

وفي تغنيه ببطولة سيف الدولة ،غناء لاشك في أن كل نفس عربية تجد فيه صورة روحها وقوميتها ،وكل ماتعتز به من فتوة وقوة ضد أعدائها .(٦)

المدح والرثاء والهجاء :

موضوعات تشكل قسما كبيرا من الموروث الشعري العربي،ونحن لانهتم بهذه الموضوعات الا لأنها تمثل مجموعة كبيرة من القيم المادية والروحية .

فنحن ندرس المدح بصفته يصورالخصائص المعنوية الروحية الرائعة للحضارة العربية. وقيمه التي ندرسها تعد مخزوناً حضارياً عظيما في الأمة العربية . وفي موضوع المدح عند شاعرنا تسترعي انتباهنا أمور جديدة ،يجدر بنا أن نقف عندها طويلا فالممدوح هو الذي يطلب المدح ـغالبا ـ

٥ ـ الديوان ١/١/ ٢٣٣

٦ ـ الفن ومذاهبه في الشعر العربي ٣٤٨

من الشاعر ،وفي المدح يظهر إباؤه ،وتعلو كرامته ،حيث إنه يضع نفسه في منزلة الممدوح . ومن هنا نرد كل التهم التي وجهت الى شاعرنا ،لاسقاط طموحه وفخره في هذا المجال . ويظهر في مدح شاعرنا لون جديد هو المديح الهجائي ،وقد تمثل بمدح الطرسوسي وكافور .

وكذلك الرثاء. فنحن لاندرسه بصفته تعداداً لمناقب الميت وبكاء ليه ،بل ندرسه لما فيه من قيم جمالية ،تتصل بالحياة والأحياء. واذا كان بعض رثاء شاعرنا واجباً أو رغبته في النوال،فان قسماً كبيراً منه يعد تعبيراً رائعاً عن مشاعر الذات ،كرثاء جدته وصديقه فاتك وخولة أخت سيف الدولة .

وقد تفوق شاعرنا على أقرانه في رثاء النساء ،وكما فعل في المديح،فقد هزّ بقوة وعنف جدار الواقع المألوف ،وداعب العادات التي يقدسها المجتمع مداعبة قاسية ،عندما وصف محاسن والدة سيف الدولة المتوفاة وأخته خولة . ورفع المرأة برثائه الى درجة المساواةالحقيقية التي تضع المرأة في مصاف الرجال . فكانت نظرته هذه رؤية جديدة الى جانب من جوانب الحياة .(٧)

ولاندرس هجاء الشاعر لما فيه من سخرية ممتعة مؤلمة فحسب ـ وإن كانت المتعة الجمالية وظيفة من وظائف الفن ـ بل ندرسه لأنه في جانب كبير منه يقوي روح الانسان ،ويوقظ أفكاره ،ويخلق كل ماهو إنساني حقاً في الانسان . وأهم صور الهجاء عند أبي الطيب هجاء الزمن والحياة والضعف الانساني ،ودسّ الهجاء في المديح، والمدح بالتفضيل،ويتسم هجاؤه بالاقذاع واشتقاق الهجاء أحيانا من لقب المهجو ،كما يتسم هجاؤه بالايجاز والقوة والنيل من خلق المهجو وخلقه ، والهجاء عنده في النهاية موقف من الناس والحياة ،مفعم بانفعال حقيقي ،يعبر به عما تكن جوانحه من معاناة وآلام .

الاغتراب والحنين :

يمكننا أن نعرف الاغتراب بأنه انسحاب من الحياة الاجتماعية ،لعدم القدرة على التكيف ،ولهذا فالمغترب يلجأ الى عالم ذاتي آخر،عالم ينشئه بنفسه لنفسه، يعيش فيه حياة العزلة والانطواء والمعاناة والصراع الداخلي .

وأسباب الغربة في شعر أبي الطيب هي أسباب الطموح ذاتها ،وغربته تتجاوز في كثير من الأحيان حدود الذات،لتعبر عن غربة العرب أنفسهم في بلادهم. في شعر الغربة تبدو الذكريات المؤلمة ،وتنتشر أنغام محزنة ،ولم تكن غربة الشاعر هذه لتدفعه الى النكوص والانسحاب من تيار الحياة الهادر، فاقتحم مصاعبها وحيداً جريئا متخطيا كل مآسي الخيبة وآلامها.

أما حنين الشاعر ،فيبدو من خلال الذكرى مشعلا مضيئاً يصفي جوهر الانسان بوهج حرارته ،وأهم صوره عند أبي الطيب الحنين الى الشّويّة في العراق ،والحنين الى سيف الدولة ،وصديقه فاتك ،وأهله .

الغزل :

ويسترعي انتباهنا فيه : الصفات الجسدية والمعنوية والنفسية التي أحبها شاعرنا في المرأة ،وكذلك نلحظ العفة والتغزل بالاعرابيات ،وتصوير مواقف الوداع ،ونظرة الشاعر إلى المرأة وامتزاج الحبيبة بالوطن .

---

٧ ـ المتنبي بين البطولة والاغتراب ١٠١

ـ المواقف والحكم والأمثال :

تكثر مواقف شاعرنا من الناس، والموت ،والحياة ،والطبع ،واللذة ،والألم، والصداقة ،والعقل،والقوة ،والعلم ،والحرب ، والسلم ،والأمور التي تسترعي انتباهنا في حكمه : شموليتها ،ومادتها الثقافية المعرفية ،وموضوعاتها الانسانية ،والواقعية وأسلوب الصياغة . ولانعدو الحقيقة اذا قلنا : ان حكم الشاعر وأمثاله ومواقفه تعد سرا من أسرار خلود شعره .

ب ـ القيم الفنية التصويرية

لم نطل الحديث عن القيم الاجتماعية والوجدانية في شعر أبي الطيب الا لأن نصيب هذه القيم من الدراسة كان أقل بكثير من نصيب الدراسات البلاغية .

واذا كانت القيم الفنيّة في الشعر تشمل اللغة ،والتراكيب والموسيقى،والاسلوب والصورة الفنية. فاننا سنجعل مدار حديثنا الصورة الفنية ،لشمولها أكثر العناصر السابقة ،ولأنها تحتل المرتبة الأولى بين عناصر التعبير الفني هذه ،ولأن نقادنا القدماء وقفوا في دراستها عند حدود الصورة البلاغية ،وقد قسموها إلى مشبه،ومشبه به ،وأداة تشبيه ،ووجه شبه ، وهذه طريقة عقلية ،تلغي الجانب النفسي في عملية الابداع الفني وتشرح الصورة فتقطعها الى أجزاء مستقلة تفقدها قيمتها وروحها .

والتصوير في الأدب نتيجة لتعاون كل الحواس ،وكل الملكات،والصورة منهج لبيان حقائق الأشياء.(٨)ويرى الدكتور جابر عصفور أنها الجوهر الثابت والدائم في الشعر،لأنها نتاج لفاعلية الخيال ، وفاعلية الخيال لاتعني نقل العالم أو نسخه وإنما تعني اعادة التشكيل،واكتشاف العلاقات الكامنة بين الظواهر،والجمع بين العناصر المتضادة أو المتباعدة في وحدة (٩)

وفي هذا الاطار يمكننا أن ندرس الصورة الفنية عند شاعرنا أبي الطيب.ولن نحاول استخدام طريقة جامدة في دراستها، بل سنحاول أن نتبين أنماطها وعناصرها ووظائفها من خلال دراسة نماذج مختلفة منها .

ومن خلال تتبع الصور الفنيةواستقرائها في ديوان الشاعر نبيّن الأنماط التالية :

١ ـ الصورة البصرية :

تغلب على عناصرها المكونة العناصر البصرية ،ويمكننا تقسيمها الى صورة سكونية ،وأخرى حركية .

٢ ـ الصورة السمعية :

ونعني بها تلك الصورة التي تدرك بحاسة السمع ،ويعد الصوت جوهرها .

٣ ـ الصورة الشميّة :

وهي الصورة التي تدرك بالاعتماد على معطيات حاسة الشم .

٤ ـ الصورة الذوقية :

ونعني بها تلك الصورة التي تنبع من حاسّة الذوق .

٥ ـ الصورة اللمسية :

وهي صورة تنبع من مختلف الادراكات التي تعتمد على حاسّة اللمس .

٦ ـ الصورة النفسية :

وهي تلك الصورة التي تنبع أساساً من انفعالات النفس،عندما تصبح هذه الانفعالات موضوعا للفن .

٧ ـ الصورة الرمزية :

وهي صورة لاتختلف عن الصورة النفسية من حيث المنبع والمصب ،بل تختلف عنها من حيث التقديم والتشكيل . فمن حيث التقديم

---

٨ ـ الصورة الأدبية ٨

٩ ـ الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي ٥ ،٣٤٠

يسعى الشاعر إلى خلق حالة نفسية خاصة، عن طريق الإيحاء النفسي بها في غموض وإبهام . أما من حيث التشكيل الفني، فقد يعبر بها الشاعر عن حالات نفسية مركبة عميقة .

٨ ـ الصورة المزجية التحويلية :

وهي رداء من الذات يلقيه الشاعر على الموجودات الحسّية والجمادات والكائنات الحيّة غير الواعية ، فيمنحها صفات انسانية

٩ ـ الصورة التجسيمية :

ويتناول فيها الشاعر معاني وأفكارا ذهنية مجرّدة ، فيبرزها ابرازاً حسيا مجسّما .

١٠ ـ الصورة ذات الأنماط المتعددة :

وهي صورة تشتمل على عدد من الصور السابقة ، يوحد الشاعر بينها ليؤلف لوحة كاملة متعددة الأبعاد رائعة الألوان .

وقد حاولنا في دراستنا أن نتلافى قدر مانستطيع المزالق التي يمكن أن يقود اليها مثل هذا التقسيم .

ولا نستطيع في هذا البحث الموجز أن نطيل الحديث عن التصوير الفني في شعر أبي الطيب ، فنكتفي بتقديم مثال واحد نختاره من الصور الرمزية .

قال أبو الطيب يمدح علي بن أحمد ابن عامر الأنطاكي :

وخرق مكان العيس فيه مكاننا
من العيس فيه واسط الكور والظهر
يخدن بنا في جوزه وكأننا
على كرة أو أرضه معنا سفر (١٠)

تسترعي انتباهنا في هذه الصورة العناصر المادية والطبيعية التالية : الكور، الظهر، الكرة ، الارض ، الخرق ، ولاتسعفنا علاقة التشابه " واسط الكور والظهر " التي أقامها الشاعر بين العيس والخرق في تحديد المكان، كما أن عنصري: الكرة ، والأرض لايقدمان مفهوما محدداً واضحاً له . وليست العلاقة الظاهرة بين اتساع الخرق وظهر الكرة مقصودة لذاتها ، بل هي جزء من الايحاء العام للصورة .

وكذلك تسترعي انتباهنا العناصر الحية في الصورة ، وتتمثل "بالركب "والعيس " وهما عنصران وفق شاعرنا في الربط بينهما.

تبدو هذه الصورة من حيث التقديم بصرية ، كما تبدو فيها قوتان متضادتان:

ـ قوة سكونية :

بدت من صيغة التقرير الواضحة في البيت الأول ، ومن توسط العيس هذا الخرق كما يتوسط الركب ظهور العيس، وتوسط الكور حالة لاتؤكد حركة العيس، بل هي أقرب الى الثبات، لأن الراكب يكون ثابتا على ظهر دابته .

ـ قوة حركية :

عبر عنها الشاعر بالفعل " يخدن" الذي يحمل معنى السير السريع المتواصل ولكن هذه القوة " قوة حركة العيس"، لاتغير السكون، ولاتؤثر في المكان، لأن الراكب ثابت بالنسبة الى الأرض ، لايكاد يتحرك ولا تعرف للكرة بداية أو نهاية .

ان المكان الذي يتحول الى رفيق ملازم للانسان يصبح سجنا له ، وحيث يتحول المكان الى كرة تضيع كل معالمه ، ويصبح السير فيه نوعا من البحث عن قدر مجهول . وما ظهور هاتين القوتين المتضادتين: قوة السكون ، وقوة الحركة ، الا تعبير عن التناقض الذي تنطوي عليه الحياة ، فبذور الحياة لاتنبت وتنمو الا حيث يوجد الموت.

١٠ـ الديوان ١/٢/٢٥٦ ـ ٢٥٧ والخرق : المفازة الواسعة . العيس : الابل . واسط: الكور : مقدم الرحل . يخدن : يسرن سيرا سريعا . جوزه : وسطه . سفر: مسافرة .

تنبع هذه الصورة من احساس قوي مرهف بضرورة البحث عن ماهية الحياة لتحقيق طموح الحياة . فالخرق رمز للمخاطر والمهالك التي يواجهها الانسان، والعيس رمز من رموز الأمل الذي يتسلح به الانسان لمواجهة مصاعب الحياة ومخاطرها دون كلل أو ملل. وإسناد الفعل " يخدن " الى العيس - التي تسير في هذه المغازة - يعبر عن ارادة الحياة المستمرة في الانسان . أما الكرة فما هي إلا تعبير عن تيار الحياة المستمر الذي يجرف الانسان، وهو تيار قوي لايتوقف ولاتدرك بدايته أو نهايته . والصورة بعلاقاتها ورموزها هذه تعبر عن الصراع المرير الذي يعيشه الشاعر - ابتغاء حلاوة الحياة التي تستحق هذه المعاناة - كما تعبر عن شقائه وألمه وضياعه . وتعكس مرحلة هامة من حياة الشاعر ، هي مرحلة البؤس والشقاء والبحث عن الأنصار لتحقيق أحلامه .

وهكذا تابعنا دراستنا في الصورة الفنية - من خلال الأنماط التي ذكرناها - محاولين الكشف عن عناصرها وخصائصها ومميزاتها ، عند شاعر ملأ الدنيا وشغل الناس .

المراجع

١ - أسس علم الجمال الماركسي اللينيني ، جماعة من الأساتذة السوفييت . تعريب الدكتور فؤادالمرعي ويوسف حلاق . دار الفارابي - بيروت . دارالجماهير العربية - دمشق ، ١٩٧٨ م

٢ - شرح ديوان المتنبي ، عبد الرحمن البرقوقي، بيروت . دار الكتاب العربي.

٣ - الصورة الأدبية ، د.مصطفى ناصف .دار الأندلس ، ط٢، ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م

٤ - الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي ، د. جابر عصفور . دار المعارف ١٩٧٧ م

٥ - الفن ومذاهبه في الشعر العربي . د. شوقي ضيف . دار المعارف ، ط ٩ ، ١٩٧٦ م .

٦ - المتنبي بين البطولة والاغتراب ، محمد شرارة ، مراجعة د. حياة شرارة المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ، ط١، ١٩٨١ م

٧ - مسائل فلسفة الفن المعاصرة جان ماري جويو ، ترجمة الدكتور سامي الدروبي. ط٢ ، دمشق ١٩٦٥ م .